المنهجيات والأدوات المعينة للباحث على تكوين علاقة جادة مع القرآن

عمرو الشرقاوي

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

إن الثقافة المتكاملة الآخذة بطرف من كل علوم هذا العصر = تجعلك أبصر بالحق، وأفقه بالباطل، وأعرف بالناس، وتزيد عدتك التي تعتد بها، وكثير من أبوابها يزيدك فقهًا بالدين، ويعين على التفكير الإبداعي ونقل الأفكار من حقل إلى حقل، وأقل رتبها شيئًا ما يكون كالنومة لا يعسر إعداد نية لها، وليس الخبر كالمعاينة وقد يعسر على صاحب الوجد أن يصف الصبابة وصفًا يحقق ما في نفسه في نفس سامعه فاطلب = تجد.

وإن الباحث لا بد له من الاطلاع على محفز لاستكمال عدته المعرفية، واقتحام المصاعب، وركوب الصعب والذلول للوصول إلى مبتغاه ومن هنا كان هذا البحث ((المنهجيات والأدوات المعينة للباحث على تكوين علاقة جادة مع القرآن)) .

والباحث المقصود هنا: هو غير المتخصص في الدراسات القرآنية، بل هو أقرب ما يكون لطالب الثقافة الشرعية المناسبة في هذا الحقل المعرفي (الدراسات القرآنية)، وما ينبغي له أن يعرفه ليقف على أرضٍ ثابتة أمام تحديات هذا العصر الذي نحياه .

ويتكون هذا البحث، أو إن شئت (الورقة البحثية)، من مقدمة، وتمهيد وأربعة محاور، اشتمل التمهيد على عنصرين اثنين:

1- المكون الإيماني وأهميته للباحث .

2- المكون الشرعي والعربي، وأهميتهما للباحث .

وبعد ذلك ذكرت أهم المحاور التي رأيت أن على الباحث الإلمام بها فيما يتعلق بحقل الدراسات القرآنية، وهي:

المحور الأول: علوم القرآن وأصول التفسير، واشتمل هذا المحور على المنهجيات المتعلقة بموضوعين:

أولًا: مصدرية القرآن وتاريخه .

ثانيًا: علوم القرآن وأصول التفسير .

أما المحور الثاني: فجاء الكلام فيه عن علم التفسير .

وفي المحور الثالث: مستجدات الدرس القرآني، تحدثت عن المناهج الحديثة في الدرس القرآني، واهم الكتب لإدراكها .

وفي المحور الرابع والأخير: الطريقة المثلى في فهم القرآن، تحدثت عن التدابير التي رسمها القرآن لتجاوز ابتلائية المحكم والمتشابه .

وفي الختام أسأل الله أن يوفقنا لما يحب ويرضى، وأن يكون هذا البحث ضياءً لمن أراد الإقبال على القرآن الكريم، والحمد لله رب العالمين .

كتبه

عمرو صبحي علي الشرقاوي

amr.alsharqawi@gmail.com

تمهيد

(1)

المكون الإيماني وأهميته للباحث

للمكون الإيماني أهميته العظيمة قبل الدخول إلى القرآن حفظًا وفهمًا، وله أثره الكبير في سلامة الفهم، بل وفي الترجيح بين الأقوال المتعارضة، فإن "القلب المعمور بالتقوى إذا رجح بمجرد رأيه؛ فهو ترجيح شرعي، فمتى ما وقع عنده وحصل في قلبه ما [يظن معه] أن هذا الأمر أو هذا الكلام أرضى لله ورسوله؛ كان هذا ترجيحًا بدليل شرعي، والذين أنكروا كون الإلهام ليس طريقًا إلى الحقائق مطلقًا أخطأوا، فإذا اجتهد العبد في طاعة الله وتقواه كان ترجيحه لما رجح أقوى من أدلة كثيرة ضعيفة؛ فإلهام مثل هذا دليل في حقه، وهو أقوى من كثير من الأقيسة الضعيفة والموهومة والظواهر والاستصحابات الكثيرة التي يحتج بها كثير من الخائضين في المذاهب والخلاف وأصول الفقه ... وقد قال النبي – صلى الله عليه وسلم –: ((الصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء))[1]، ومن معه نور وبرهان وضياء كيف لا يعرف حقائق الأشياء من فحوى كلام أصحابها ولا سيما الأحاديث النبوية ؟ فإنه يعرف ذلك معرفة تامة؛ لأنه قاصد العمل بها؛ فتتساعد في حقه هذه الأشياء مع الامتثال ومحبة الله ورسوله، حتى إن المحب يعرف من فحوى كلام محبوبه مراده منه تلويحًا لا تصريحًا.

والعين تعرف من عَيْنَيْ محدِّثها .. إن كان من حزبها أو من أعاديها

إنارة العقل مكسوف بطوع هوىً .. وعقل عاصي الهوى يزداد تنويرا

1() رواه مسلم: (223).

وفي الحديث الصحيح: ((لا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتَّى أحبه، فإذا أحببته؛ كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها))[1]، ومن كان توفيق الله له كذلك؛ فكيف لا يكون ذا بصيرة نافذة ونفس فعالة؟! وإذا كان الإثم والبر في صدور الخلق له تردد وجولان؛ فكيف حال من الله سمعه وبصره وهو في قلبه؟!

... وأيضًا؛ فإن الله فطر عباده على الحق، فإذا لم تستحل الفطرة شاهدت الأشياء على ما هي عليه، فأنكرت منكرها وعرفت معروفها، قال عمر: ((الحق أبلج لا يخفى على فَطِن)).

فإذا كانت الفطرة مستقيمة على الحقيقة منورة بنور القرآن؛ تجلت لها الأشياء على ما هي عليه في تلك المزايا، وانتفت عنها ظلمات الجهالات، فرأت الأمور عيانًا مع غيبها عن غيرها.

وفي ((السنن)) و ((المسند)) وغيره عن النواس بن سمعان، عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: ((ضرب الله مثلًا صراطًا مستقيمًا، وعلى جنبتي الصراط سوران، وفي السورين أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وداع يدعو على رأس الصراط، وداع يدعو من فوق الصراط، والصراط المستقيم هو الإسلام، والستور المرخاة حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، فإذا أراد العبد أن يفتح بابًا من تلك الأبواب ناداه المنادي: يا عبد الله! لا تفتحه؛ فإنك إن فتحته تلجه، والداعي على رأس الصراط كتاب الله، والداعي فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مؤمن))[2]؛ فقد بين في هذا الحديث العظيم – الذي من عرفه انتفع به انتفاعًا بالغًا إن ساعده التوفيق واستغنى به عن علوم كثيرة – أن في قلب كل مؤمن واعظ، والوعظ هو الأمر والنهي والترغيب والترهيب.

وإذا كان القلب معمورًا بالتقوى انجلت له الأمور وانكشفت، بخلاف القلب الخراب المظلم، قال حذيفة بن اليمان: ((إن في قلب المؤمن سراجًا يزهر)).

وفي الحديث الصحيح: ((إن الدجال مكتوب بين عينيه كافر، يقرؤه كل مؤمن قارىء وغير قارىء))[3]؛ فدل على أن المؤمن يتبين له ما لا يتبين لغيره، ولا سيما في الفتن، وينكشف له حال الكذاب الوضاع

1() رواه البخاري: (6502).
2() رواه أحمد: (17634)، والترمذي: (2859).
3() رواه مسلم: (169)، (2934).

على الله ورسوله؛ فإن الدجال أكذب خلق الله، مع أن الله يجري على يديه أمورًا هائلة ومخاريق مزلزلة، حتى إن من رآه افتتن به، فيكشفها الله للمؤمن حتى يعتقد كذبها وبطلانها.

وكلما قوي الإيمان في القلب قوي انكشاف الأمور له وعرف حقائقها من بواطلها، وكلما ضعف الإيمان ضعف الكشف، وذلك مثل السراج القوي والسراج الضعيف في البيت المظلم، ولهذا قال بعض السلف في قوله: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ [النور: 35]؛ قال: هو المؤمن ينطق بالحكمة المطابقة للحق وإن لم يسمع فيها بالأثر، فإذا سمع فيها بالأثر كان نورًا على نور؛ فالإيمان الذي في قلب المؤمن يطابق نور القرآن؛ فالإلهام القلبي تارة يكون من جنس القول والعلم، والظن أن هذا القول كذب، وأن هذا العمل باطل، وهذا أرجح من هذا أو هذا أصوب.

... وأيضًا؛ فإذا كانت الأمور الكونية قد تنكشف للعبد المؤمن لقوة إيمانه يقينًا وظنًا؛ فالأمور الدينية كشفها له أيسر بطريق الأولى؛ فإنه إلى كشفها أحوج، فالمؤمن تقع في قلبه أدلة على الأشياء لا يمكنه التعبير عنها في الغالب، فإن كل أحد لا يمكنه إبانة المعاني القائمة بقلبه، فإذا تكلم الكاذب بين يدي الصادق عرف كذبه من فحوى كلامه، فتدخل عليه نخوة الحياء الإيماني فتمنعه البيان، ولكن هو في نفسه قد أخذ حذره منه، وربما لوح أو صرح به خوفًا من الله وشفقةً على خلق الله ليحذروا من روايته أو العمل به.

وكثير من أهل الإيمان والكشف يلقي الله في قلبه أن هذا الطعام حرام، وأن هذا الرجل كافر أو فاسق أو ديوث أو لوطي أو خمار أو مغن أو كاذب من غير دليل ظاهر، بل بما يلقي الله في قلبه.

وكذلك بالعكس، يلقي في قلبه محبة لشخص، وأنه من أولياء الله، وأن هذا الرجل صالح، وهذا الطعام حلال، وهذا القول صدق؛ فهذا وأمثاله لا يجوز أن يُستبعد في حقِّ أولياء الله المؤمنين المتقين.

وقصة الخضر مع موسى هي من هذا الباب، وأن الخضر علم هذه الأحوال المعينة بما أطلعه الله عليه، وهذا باب واسع يطول بسطه قد نبهنا فيه على نكت شريفة تطلعك على ما وراءها"[1].

1() مجموع الفتاوى: (20/ 42 - 47)، والمنتخب من كلام شيخ الإسلام، للسقاف: (241)، وانظر: جامع الرسائل: (2/ 93).

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم على دراية بأهمية المكون الإيماني قبل الولوج إلى القرآن فهمًا وحفظًا، ومن نصوصهم الدالة على ذلك، قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ((لقد عشنا دهرًا طويلًا وأحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن فتنزل السورة على محمد صلى الله عليه وسلم فيتعلم حلالها وحرامها وآمرها وزاجرها وما ينبغي أن يقف عنده منها، ثم لقد رأيت رجالًا يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته لا يدري ما آمره ولا زاجره ولا ما ينبغي أن يقف عنده منه ينثره نثر الدقل))[1]، وكان ابن عمر يقول: ((كان الفضل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدر هذه الأمة لا يحفظ من القرآن إلا السورة أو نحوها، ورزقوا العمل بالقرآن، وإن آخر هذه الأمة يقرءون القرآن منهم الصبي والأعمى ولا يرزقون العمل به))[2]، وقال أيضًا: ((لقد عشنا برهة من دهر وأحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن وتنزل السورة على محمد صلى الله عليه وسلم فيتعلم حلالها وحرامها وآمرها وزاجرها وما ينبغي أن يوقف عنده منها كما تتعلمون أنتم اليوم القرآن ثم لقد رأيت اليوم رجالا يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته , ولا يدري ما آمره , ولا زاجره , ولا ما ينبغي أن يوقف عنده منه وينتثره نثر الدقل))[3].

ومن أعظم المواقف الدالة على أهمية المكون الإيماني للباحث في الدراسات الشرعية بالعموم، والدراسات القرآنية بالخصوص = موقف أبي بكر الصديق رضي الله عنه في وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وكيف أنه وفق بإيمانه لإيصال الحق للصحابة عبر انتزاع آية من كتاب الله تعالى، عن عائشة رضي الله عنها، زوج النبي صلى الله عليه وسلم، ((أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، مات وأبو بكر بالسنح، – يعني بالعالية – فقام عمر يقول: والله ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: وقال عمر: والله ما كان يقع في نفسي إلا ذاك، وليبعثنه الله، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم، فجاء أبو بكر فكشف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقبله، قال: بأبي أنت وأمي، طبت حيًا وميتًا، والذي نفسي بيده لا يذيقك الله الموتتين أبدًا، ثم خرج فقال: أيها الحالف على رسلك، فلما تكلم أبو بكر جلس عمر.

1() إحياء علوم الدين: (1/ 275) .

2() تفسير القرطبي: (1/ 40) .

3() شرح مشكل الآثار: (4/ 84).

فحمد الله أبو بكر وأثنى عليه، وقال: ألا من كان يعبد محمدًا صلى الله عليه وسلم فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، وقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: 30]}، وقال: {﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: 144]، قال: فنشج الناس يبكون))[1].

ومما سبق يتبين أن للمكون الإيماني أعظم الأثر في بناء التصورات السليمة لدى المسلم بشكل عام، وطالب العلم على وجه الخصوص، وأنه لا بد أن يكون صاحب إيمان راسخ، وتجرد للوصول للحق[2]، يقول ابن رشيق ناقلًا عن شيخ الإسلام: ((ربما طالعت على الآية الواحدة نحو مئة تفسير، ثم أسأل الله الفهم وأقول: يا معلم إبراهيم.

ويذكر قصة معاذ بن جبل، وقوله لمالك بن يخامر لما بكى عند موته، وقال: أنا لا أبكي على دنيا كنت أصيبها منك، ولكن أبكي على العلم والإيمان اللذين كنت أتعلمهما منك، فقال: إن العلم والإيمان مكانهما، من ابتغاهما وجدهما، فاطلب العلم عند أربعةٍ وسمَّاهم، فقال: عند أبي الدرداء، وعبدالله بن مسعود، وسلمان الفارسي، وعبدالله بن سلام، فإن أعياك العلم عند هؤلاء؛ فليس هو في الأرض، فاطلبه من معلِّم إبراهيم))[3].

وقال ابن القيم: ((وقال مالك للشافعي – رضي الله عنهما – في أول ما لقيه: "إني أرى الله قد ألقى على قلبك نورًا فلا تطفئه بظلمة المعصية"، وقد قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا} [الأنفال: 29]، ومن الفرقان النور الذي يفرق به العبد بين الحق والباطل، وكلما كان قلبه أقرب إلى الله كان فرقانه أتم، وبالله التوفيق))[4].

1() رواه البخاري: (3667).

2() انظر: إعلام الموقعين، لابن القيم: (6/ 197)، ت: مشهور .

3() الجامع لسيرة ابن تيمية: (283).

4() إعلام الموقعين: (6/ 199)، ت: مشهور .

(2)

المكون الشرعي والعربي[1]

أولًا: المكون الشرعي .

للمكون المعرفي في عموم العلوم الشرعية أهميته الكبيرة للباحث في الدراسات القرآنية، ويمكننا إجمال ذلك في عدة نقاط فنقول:

1- لمعرفة الاعتقاد الصحيح أهميته للباحث من جهات:

الأولى: جهة الفهم الصحيح للقرآن من غير تفريط ولا إفراط، وذلك أن من الخطأ أن يعتقد الإنسان رأيًا ثم يحمل ألفاظ القرآن عليها من غير هدى من طريق السلف رضي الله عنهم، وذلك كتأويل الروافض لآيات نزلت في القرآن لتشهد لاعتقادهم الفاسد، وتأويل المعتزلة لآيات الصفات، وتأويلات الباطنية وغلاة المتصوفة، وغير هؤلاء ممن ينتسب إلى الفرق المختلفة .

الثانية: والجهة الأخرى لأهمية تعلم علم العقيدة، أن العلماء من سائر الطوائف صنفوا في علم التفسير، وتعلقوا به، ووقع في بعض كلامهم خلط للحق بالباطل، فمتى كان الطالب لعلم التفسير على خُبْر بتلك العقائد سلم من الزلل بتوفيق الله تعالى .

2- وأما معرفة السنة رواية ودراية فلها أهميتها كذلك من جهات:

الأولى: كتب الحديث أحد أهم مصادر المفسر، فلا يستغني المفسر عن الاطلاع على كتب السنة لاستخراج ما يقف عليه من التفسير النبوي، أو عموم التفسير بالسنة، وكذلك تفسير السلف رضي الله عنهم من الصحابة والتابعين، وأتباعهم .

الثانية: تمييز الصحيح من الضعيف عند إرادة تحرير إسناد من الأسانيد، لأن في بعض كتب التفسير ما نقله مصنف الكتاب بغير تمييز، بل يوجد في بعضها موضوعات لا يحل الاعتماد عليها، فيلزم الباحث أن يتبين ذلك كله .

1() انظر للأهمية: التكامل المعرفي بين العلوم، وأهميته لطلاب علم التفسير، عمرو الشرقاوي، بحث منشور بالشبكة العالمية .

3- ومعرفة الفقه وأصوله من المهمات للباحث من جهات:

الأولى: معرفة كيفية استنباط الأحكام الشرعية من القرآن المجيد .

الثانية: التداخل الحاصل بين علم أصول الفقه وعلوم القرآن

ثانيًا: المكون العربي .

من النصوص المهمة والتي يمكن استحضارها في هذا السياق قول الإمام أبي إسحاق الشاطبي: ((فإذا فرضنا مبتدئًا في فهم العربية فهو مبتدئ في فهم الشريعة، أو متوسطًا؛ فهو متوسط في فهم الشريعة والمتوسط لم يبلغ درجة النهاية، فإن انتهى إلى درجة الغاية في العربية كان كذلك في الشريعة؛ فكان فهمه فيها حجة كما كان فهم الصحابة وغيرهم من الفصحاء الذين فهموا القرآن حجة، فمن لم يبلغ شأوهم؛ فقد نقصه من فهم الشريعة بمقدار التقصير عنهم، وكل من قصر فهمه لم يعد حجة، ولا كان قوله فيها مقبولًا))[1].

ومن العلوم التي يعتني بها الباحث، وهي متعلقة بالدراسات القرآنية:

1- علم اللغة، وإدراك معاني المفردات .

2- علمي النحو والصرف .

3- علم البلاغة، وقد وضع هذا العلم لإدراك إعجاز القرآن الكريم، ومن طالع كتب شيخنا العلامة محمد أبي موسى حفظه الله أدرك شيئًا من ذلك .

وخلاصة الأمر: أن إدراك علوم العربية من أهم معينات الباحث لإدراك أعمق، وفهم أدق للقرآن الكريم، وما يحويه من كنوز، وإدراكها من أهم الضوابط في فهم كلام الله تعالى، بل إن كثيرًا من الخلل ليرد بسبب إغفال هذا الجانب وما يتعلق به .

فقد وقع الخلل في كثير مما يسمى (الإعجاز العلمي) بسبب عدم الاعتناء بلغة العرب، ومدخلها في فهم كلام الله سبحانه وتعالى، وحمل بعض المفردات الواردة في القرآن على المصطلحات الحديثة التجريبية، وغيرها .

1() الموافقات: (5/ 53)، ت: مشهور .

واللغة العربية من مصادر التفسير التي اعتمدها الرسول صلى الله عليه وسلم، والصحابة من بعده، والتابعين وأتباعهم بعد الصحابة رضي الله عنهم .

يقول الإمام أبي الحسن الواحدي عن أهمية الأدب العربي في فهم القرآن، وحال أهل زمانه في تحصيله: ((وقد أعفى أهل زماننا أنفسهم عن كد التعب في طلب الأدب، فقد هوت دولته إلى الحضيض، وصار يرنو بالطرف الغضيض، وها هو قد خوى نجمه وصَوَّح نبته، وذوى عوده، وخرَّ عموده.

وإذا ضاع الأدب ضاع ما يحتاج في تفسيره إليه، ويعول في معرفته عليه، وهو علم القرآن العربي، المنزل بلسان العرب ولغتهم، المنظوم بألفاظهم في مخاطبتهم.

والله تعالى ذكره أنزل كتابه على قوم عرب أولي بيان فاضل، وفهم بارع.

أنزله جل ذكره بلسانهم، وصيغة كلامهم الذي نشؤوا عليه، وجبلوا على النطق به فتدربوا به، يعرفون وجوه خطابه ويفهمون فنون نظامه، ولا يحتاجون إلى تعلم مشكله وغريب ألفاظه حاجة المولدين الناشئين مع من لا يعلم لسان العرب حتى يعلمه، ولا يفهم ضروبه وأمثاله وأساسه وطرقه حتى يفهمها.

وبين النبي – صلى الله عليه وسلم – للمخاطبين من أصحابه رضي الله عنهم – ما عسى بهم الحاجة إليه من معرفة بيان مجمل الكتاب وغامضه ومتشابهه وجميع وجوهه، التي لا غنى بهم وبالأمة عنه. فاستغنوا بذلك عما نحن إليه اليوم محتاجون من معرفة لغات العرب واختلافها والتبحر فيها، والاجتهاد في تعلم وجوه العربية الصحيحة التي بها نزل الكتاب وورد البيان.

فعلينا أن نجتهد في تعلم ما يتوصل بتعلمه إلى معرفة ضروب خطاب الكتاب، ثم السنن المبينة لمجمل التنزيل، الموضحة للتأويل؛ لتنتفي عنا الشبه التي دخلت على كثير من رؤساء أهل الزيغ والإلحاد، ثم على رؤوس ذوي الأهواء والبدع، الذين تأولوا بآرائهم المدخولة فأخطؤوا، وتكلموا في كتاب الله عز وجل بلكنتهم العجمية دون معرفة ثاقبة، فضلوا وأضلوا، نعوذ بالله من الخذلان، وإياه نسأل التوفيق والصواب.

إلى أن قال: ... وقد كان الأكابر من السلف يحثون على تعلم لغة العرب، ويرغبون فيها لما يعلمون من فضلها وفرط الحاجة إليها في معرفة ما في الكتاب، ثم في السنن والآثار، وأقاويل أهل التفسير من الصحابة والتابعين، من الألفاظ الغريبة والمخاطبات العربية، فإن من جهل لسان العرب وكثرة ألفاظها وافتنانها في مذاهبها، وجهل جمل علم الكتاب))[1].

1() التفسير البسيط: (1/ 397 – 398).

وقال أيضًا: ((وقل من تقدم في علم من العلوم إلا بمعرفة الأدب، ومقاييس العربية، والنحو، وما حدثت البدع والأهواء المضلة إلا من الجهل بلغة العرب))[1].

وبهذا المدخل – الطويل نسبيًا – نصل إلى غايتنا ببيان ما يحتاجه الباحث من أدوات ومنهجيات متعلقة بالقرآن، والعلوم المحيطة به، وهو صلب بحثنا .

1() السابق: (1/ 408)، وقد استفاض رحمه الله في التدليل على هذا الأصل من أهمية الرجوع إلى لغة العرب، فانظره فإنه نفيس .

المحور الأول: علوم القرآن وأصول التفسير

ينبغي على الباحث أن يعرف من علوم القرآن وأصول التفسير ما تمس الحاجة إليه، لأن هذه العلوم وضعت بالأساس لخدمة القرآن المجيد ببيان العلوم المتصلة به .

ومن المداخل الحسنة فيما يتعلق بهذين العلمين، أن يتعرف الباحث على تاريخ التدوين في هذين العلمين، ومن الكتب المفيدة:

1- علوم القرآن: تاريخه .. وتصنيف أنواعه، د. مساعد الطيار، بحث منشور ضمن كتاب (بحوث محكمة)، مركز تفسير للدراسات القرآنية .

2- جهود الأمة في أصول التفسير، د. مساعد الطيار، بحث منشور ضمن كتاب (بحوث محكمة)، مركز تفسير للدراسات القرآنية .

والهدف من هذا المدخل التعرف على الأمرين التاليين:

الأول: التعرف على هذين العلمين، من حيث مفهوم كل منهما، والقدرة على التمييز بين المصطلحات المختلفة المتعلقة بكل منها، ومن ثم التفريق بين مصطلحات: (علوم القرآن – علوم التفسير – أصول التفسير) .

الثاني: التعرف على تاريخ التدوين في هذين العلمين، وأهم مصنفات العلماء وإسهاماتهم في هذين العلمين .

وبعد تعرف الباحث على ما يتعلق بمفهوم وتاريخ علوم القرآن وأصول التفسير، يمكن أن يلج إلى صلب العلم نفسه، وبالأخذ في الاعتبار ما يمكن أن يلاقيه الباحث في هذا العصر من تشتت في المصادر، وكثرة في المطبوعات، فسنركز على ما نراه – بحسب اطلاع الكاتب القاصر – على بعض الكتب المهمة في كلٍ من القضايا الآتية:

أولًا: مصدرية القرآن وتاريخه .

ثانيًا: علوم القرآن وأصول التفسير .

والهدف من الاطلاع على هذه القضايا للباحث يتمثل في الأمور التالية:

الأول: أن يكون الباحث على دراية تامة بتاريخ القرآن الكريم .

الثاني: القدرة على الإجابة عن الشبهات المتعلقة بمصدرية القرآن .

الثالث: القدرة على إقامة البرهان على حفظ القرآن، ونفي التحريف عنه .

الرابع: القدرة على الإجابة عن أهم الشبهات المتعلقة بالقرآن .

الخامس: التمكن من مفاتيح العلوم الأساسية المتعلقة بالقرآن الكريم، ووضوحها في ذهن الباحث .

وأما الكتب المرشحة في هذا المحور، فيمكننا أن نقسمها على أمرين اثنين:

أولًا: مصدرية القرآن وتاريخه .

فمن المهم جدًا أن يتعرف الباحث على تاريخ القرآن، وأهم القضايا المتعلقة بوصول القرآن إلينا، وليصل الباحث إلى برد اليقين في حفظ الله تعالى لهذا القرآن، وذلك عبر الكتب الآتية:

1- النبأ العظيم، العلامة د. محمد دراز .

ويعد هذا الكتاب من مفاخر التأليف المعاصر، فقد أثبت العلامة دراز من خلاله مصدرية القرآن عبر حجج وبراهين متعددة مع بيان راق ونفس علمي رشيد .

وقد وفق الله تعالى واعتنيت به، وقدمت له بمقدمة اعتنيت فيها بإبراز أهم حجج الكتاب، مع بيان موقف الفرق الإسلامية من القرآن، وأهم الحجج الدالة على نفي التحريف عن القرآن المجيد، وطبع بمركز تفكر للبحوث والدراسات (2018 م).

2- مدخل إلى القرآن الكريم، العلامة د. دراز، دار القلم .

وقد اعتنى فيه العلامة دراز بإثبات الحجج الدالة على نفي التحريف عن القرآن، وتثبيت مصدريته، وكونه من عند الله تعالى .

3- جمع القرآن .. مدخل في سؤال وجواب، أحمد سالم، مركز تفكر للبحوث .

وفي الكتاب عناية بتصوير المسائل، مع بيان قضية الجمع القرآني، ورد أهم الشبهات المتعلقة بها .

4- تنزيه القرآن، منقذ السقار، مركز تكوين للأبحاث والدراسات .

واعتنى فيه الكاتب ببيان أهم الشبهات المتعلقة بالقرآن، والرد عليها، واعتمد على عدة مصادر جيدة في هذا الموضوع .

5- تاريخ القرآن عند الشيعة الاثنى عشرية، عبدالعزيز الضامر، مركز تكوين للأبحاث والدراسات .

وهي رسالة علمية في بيان تاريخ القرآن عند الشيعة الاثنى عشرية، والرد على أهم شبهاتهم المتعلقة بالتحريف .

6- المصاحف المنسوبة للصحابة، محمد الطاسان، التدمرية .

وقد اهتم في هذا البحث ببيان مسألة من المسائل الشائكة في تاريخ القرآن الكريم، وهي مسألة المصاحف المنسوبة للصحابة، وفي الرسالة حشد حسن، وردود على أهم الشبهات المتعلقة بهذا الموضوع، والذي يعد من أهم مداخل الشبهات لدى كثير من المخالفين من التيارات المختلفة، وللباحث كتاب آخر، وهو: موقف الصحابي الجليل ابن مسعود من الجمع العثماني، ونشره كرسي القرآن الكريم وعلومه، وهو في نفس القضايا المتعلقة بجمع القرآن الكريم .

ثانيًا: علوم القرآن وأصول التفسير .

لا بد أن يطلع الباحث المريد تكوين علاقة جيدة مع القرآن على العلوم المتعلقة بالقرآن، وعلى القواعد الكلية التي تعين على فهم القرآن ومعرفة تفسيره ومعانيه، والتمييز في منقول ذلك ومعقوله بين الحق وأنواع الأباطيل، والتنبيه على الدليل الفاصل بين الأقاويل؛ فإنَّ الكتب المصنفة في التفسير مشحونة بالغث والسمين، والباطل الواضح والحق المبين[1].

ويستطيع الباحث أن يتعرف على هذا المحور عبر الكتاب التالية:

1- مدخل إلى التعريف بالمصحف الشريف، د. حازم حيدر سعيد، معهد الإمام الشاطبي .

1() مقدمة أصول التفسير، لابن تيمية مع شرح د. مساعد الطيار: (17).

ويعد الكتاب من أهم المداخل لعلوم القرآن، وفيه عرض لموضوعات متعددة متعلقة بالقرآن من حيث جمعه، ومكيه ومدنيه، وتاريخ طباعته ورسمه، وغير ذلك من الموضوعات المتعلقة بالقرآن .

2- المقدمات الأساسية في علوم القرآن، د. عبدالله الجديع، دار الريان .

وهو من الكتب الجيدة جدًا في تصور علوم القرآن المختلفة، مع تحرير مسائلها .

3- المحرر في علوم القرآن، د. مساعد الطيار، معهد الإمام الشاطبي .

4- التحرير في أصول التفسير، د. مساعد الطيار، معهد الإمام الشاطبي .

وتمتاز كتب الدكتور مساعد الطيار – عمومًا – بتحرير مسائلها، وحسن عرضها مع تخصص مميز، بالإضافة إلى أن هذين الكتابين من المقررات الدراسية[1] .

وكمعرفة عامة، فإن على الباحث أن يطلع على ما يمكن أن يستفيد منه من إصدرات المؤسسات القرآنية، ومن أهمها:

1- مركز تفسير للدراسات القرآنية .

2- معهد الإمام الشاطبي للقرآن وعلومه بجدة .

3- مؤسسة مبدع، ومركز الدراسات القرآنية بالرابطة المحمدية بالمغرب .

4- جمعية تبيان للقرآن وعلومه بالمملكة العربية السعودية .

5- كراسي القرآن الكريم وعلومه المختلفة .

1() لمزيد من المنهجية في التدرج لدراسة علوم القرآن، انظر:

1- المشوق إلى القرآن، عمرو الشرقاوي، مركز تفكر .

2- الدليل إلى القرآن، عمرو الشرقاوي، المكتبة العصرية .

المحور الثاني: التفسير

علم القرآن العظيم: هو أرفع العلوم قدرًا، وأجلها خطرًا، وأعظمها أجرًا، وأشرفها ذكرًا[1]، وإن أحق ما صُرفت إلى علمه العناية، وبلغت في معرفته الغاية، ما كان لله في العلم به رضا، وللعالم به إلى سبيل الرشاد هدى، وإن أجمع ذلك لباغيه، كتاب الله الذي لا ريب فيه، وتنزيله الذي لا مرية فيه، الفائز بجزيل الذخر وسنى الأجر تاليه، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد[2].

وإن من أهم المعينات على القرب من كتاب الله تعالى = تعلم معانيه .

"وحاجة الأمة ماسَّة إلى فهم القرآن الذي هو حبل الله المتين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم، الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسن، ولا يَخْلَقُ عن كثرة الترديد، ولا تنقضي عجائبه، ولا يشبع منه العلماء، من قال به صدق، ومن عمل به أُجِرَ، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم، ومن تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله.

... ومن المعلوم أن كل كلام فالمقصود منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه، فالقرآن أولى بذلك"[3].

والباحث في تعلقه بالقرآن يحتاج إلى أمرين:

الأول: معرفة عامة معاني كلام الله سبحانه وتعالى .

الثاني: أن يعرف كيفية التكشيف عن معنى من معاني الآيات .

إذا عرفت ذلك: فينبغي على الباحث أن يتعرف على معاني كلام الله تعالى، فإن هذا مما ينبغي على كل مسلم أن يتعلمه ويعرفه، ويكفيه في هذا أن يعرف معاني كلام الله تعالى عبر تفسير من التفاسير المختصرة وهي متنوعة كمختصرات ابن كثير، والمختصر في تفسير القرآن – إعداد مركز تفسير للدراسات القرآنية .

1() مقدمة تفسير الإمام ابن جزي، (10/1).

2() جامع البيان، للطبري: (7/1).

3() مقدمة في أصول التفسير، مع شرح د. الطيار: (18، 31).

أما التكشيف عن معنى آية من الآيات، فيمكن للباحث أن يسلك هذا التدرج الذي أقترحه، وذلك بعد إلمامه بقدر صالح من علوم القرآن وأصول التفسير حتى يستطيع فهم كلام أهل العلم .

1- معرفة المعنى .

وذلك عبر تفسير مختصر، كالمختصر في تفسير القرآن، إعداد مركز تفسير للدراسات القرآنية، أو احد مختصرات ابن كثير .

2- معرفة الأقوال في الآية .

ويفيده في ذلك أحد الكتب الآتية:

- تفسير الإمام ابن جزي الكلبي (التسهيل لعلوم التنزيل)، ومن أجود طبعاته طبعة دار طيبة بتحقيق علي الصالحي .

- زاد المسير، للإمام ابن الجوزي، ط. المكتب الإسلامي .

- تفسير الإمام ابن كثير، ط. دار طيبة الثانية أو دار ابن الجوزي .

3- معرفة الترجيح .

ويستفيد في هذه المرحلة من عامة الكتب المطولة، غير أن من أنفسها وأهمها:

- تفسير الإمام ابن جرير الطبري (جامع البيان)، ط. عالم الكتب .

- تفسير الإمام ابن عطية (المحرر الوجيز)، ط. الأوقاف القطرية .

- تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية، ط. دار ابن الجوزي .

- تفسير الإمام الطاهر ابن عاشور، ط. سحنون .

المحور الثالث: مستجدات الدرس القرآني

لقد نزل القرآن المجيد على الناس وقت نزل ليخرجهم من الظلمات إلى النور، وظل طيلة تلك القرون يحارِبُ ويحَارَبُ، فقد زعم كفار قريش أنه سحر، وتارة قالوا: أساطير الأولين، وتارة زعموا: أنه يعلمه بشر، إلى آخر هذه الترهات التي أقروا هم – قبل غيرهم – أنها الأباطيل[1] .

وهيمن القرآن، وسطع نوره، وخضع العرب لسطوته، ودانت الأرض له .

إلا أن قومًا انحرفت عقولهم، وسيطرت الأهواء عليهم، ولم يستطع واحد منهم أن يتجرأ على نص القرآن بالتحريف، فاتجهوا لمعاني القرآن وحاولوا أن ينزلوها على أهوائهم، ويطوعوها لآرائهم .

وظل هؤلاء القوم إلى زماننا، وسيظلون – إلى ما شاء الله – سنة الله في المدافعة بين أهل الحق والباطل، ومقصودنا – هنا – أن نرشد الباحث إلى الخيوط الأولية التي يتعرف من خلالها على هؤلاء، لأن معرفة الشر معينة على توقيه، ومن لا يعرف الخير من الشر يقع فيه !

وخلاصة الأمر أن هؤلاء ينقسمون إلى قسمين رئيسين:

أولًا: المذاهب (العقائدية) .

وهي الطوائف التي تحاول أن تجد لها في النص القرآني منزعًا استدلاليًا تتوصل من خلاله إلى تأسيس مشروعية مقولاتها العقائدية، فتجعل خصمها منازعًا للقرآن وهي الموافقة له، وقد تمَّ التنبيه على ذلك منذ البدايات الأولى لظهور الطوائف العقائدية في أواخر عصر الصحابة، وفي ذلك يقول الزبير لابنه: ((إنَّ القرآن قد قرأه كل قوم، فتأوَّلوه على أهوائهم وأخطؤوا مواضعه))[2].

والأمر كذلك نجده في الطبقة التالية لهم، يقول سعيد بن جبير – تلميذ ابن عباس – في معرض بيانه لمعنى المتشابه: ((كل فرقة يقرؤون آية من القرآن يزعمون أنَّها لهم))[3]، يقول ابن تيمية: «ولهذا يجعل كل فريق المشكل من نصوصه غير ما يجعل الفريق الآخر مشكلًا»[4].

1() انظر: النبأ العظيم، د. محمد دراز، باعتنائنا، ط. مركز تفكر .

(2) الإبانة الكبرى، ابن بطة، (2/ 620)، رقم: (811) .

(3) تفسير القرآن، ابن المنذر، (1/ 120، 121)، رقم: (228)، والشريعة، الآجري، (1/ 341) .

(4) درء تعارض العقل والنقل، ابن تيمية، (1/ 12) .

ولن نخوض في هذا البحث في بيان هذه المذاهب، أو أصولها فقد كفانا ذلك البحث المتميز، للدكتور ياسر المطرفي، وقد سماه: (العقائدية وتفسير النص القرآني)، ونشره مركز نماء للبحوث والدراسات، وهو حريٌ أن يطالع، لأهميته القصوى في تصور المراحل التي مر بها تفسير النص القرآن، وبيان الأصول التي قام عليها تفسير النص القرآني عند أصحاب هذه المذاهب .

ثانيًا: مستجدات الدرس القرآني في العصر الحديث .

وفي العصر الحديث ظهرت التأويلية المعاصرة بمناهجها المختلفة، ودخلت إلى القرآن الكريم، لتؤسس هي الأخرى مشروعيتها، ولتبحث من داخل التراث في نقد التراث نفسه .

واختلفت هذه المناهج، وتعددت رموز هذا الاتجاه، مما أوجب على الباحث المعاصر أن يتعرف على هذه الاتجاهات، وعلى الدوافع التي دفعت بهم إلى الإقبال على القرآن، ودراسته، والتأليف حوله .

وتعد أشهر النظريات العاملة في النص القرآني، هي:

أولًا: تاريخية النص Historical context .

ثانيًا: ثنائية النص والواقع... معبر التاريخية .

ثالثًا: إسقاط نظرية النسبية Theory Relativism على النص الشرعي .

رابعًا: تطبيق نظرية الهيرمينوتيكا Hermeneutics على نصوص الوحي .

وترجع أهمية الوقوف على هذا المحور لدى الباحث المعاصر، ليتسلح بمعرفة هؤلاء القوم حال دفاعه عن القرآن الكريم، وسأذكر هنا مسردًا ببعض الكتب التي تساعد الباحث والمطلع، للوقوف على حقيقة هؤلاء وفهمهم، وهي:

1- ظاهرة التأويل الحديثة في الفكر العربي المعاصر، دراسة نقدية إسلامية، د. خالد بن عبد العزيز السيف، مركز التأصيل للدراسات والبحوث .

2- القراءات المعاصرة والفقه الإسلامي، عبد الولي الشلفي، مركز نماء للبحوث والدراسات .

3- علوم القرآن في المنظور الحداثي، دراسة تحليلية نقدية، د. أحمد بوعود، دار الكتاب المغربي، دار الكلمة .

4- التوظيف العلماني لأسباب النزول، د. أحمد قوشتي، دار البيان .

5- الاتجاه العلماني المعاصر في علوم القرآن، د. أحمد محمد الفاضل، در الفتح .

6- الحداثيون العرب والقرآن الكريم، د. الجيلاني مفتاح، دار النهضة .

7- المستشرقون والقرآن الكريم، د. محمد بهاء الدين حسين، دار النفائس .

8- إشكالية تاريخية النص الديني، د. مرزوق العمري، منشورات ضفاف .

9- القراءة الأركونية للقرآن، دراسة نقدية، أحمد فاضل السعدي، مركز الحضارة .

10- تنزيه القرآن، منقذ السقار، ط. مركز تكوين .

وهذه الكتب ستدل القارئ على ما بعدها إن أراد التوسع، وعلى الباحث أن يمتثل هذه الوصية العظيمة التي قال عنها ابن القيم: ((ما أعلم أني انتفعت بوصية في دفع الشبهات كانتفاعي بذلك))[1].

وقد وصاه به شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية، يقول ابن القيم: ((قال لي شيخ الإسلام – رضي الله عنه – وقد جعلت أورد عليه إيرادًا بعد إيراد: لا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات مثل السفنجة، فيتشربها؛ فلا ينضح إلا بها ولكن اجعله كالزجاجة المصمتة، تمر الشبهات بظاهرها ولا تستقر فيها؛ فيراها بصفائه ويدفعها بصلابته، وإلا فإذا أَشربت قلبك كل شبهة تمر عليها صار مقراً للشبهات، أو كما قال))[2].

وليقل في كل حال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: 6].

---

[1]() مفتاح دار السعادة: (1/ 443).

[2]() مفتاح دار السعادة: (1/ 443).

المحور الرابع: الطريقة المثلى في فهم القرآن

لقد أرشدنا القرآن إلى الطريقة المثلى في فهمه، وأرشدنا إلى طريقة تجاوز المشكلات الحاصلة في فهم القرآن، ويمكننا تلخيص تلك المعالم في النقاط التالية[1]:

أولًا: أن المقصود الأكبر الذي من أجله تنزل النص القرآني هو الهداية، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴿٢﴾﴾ [البقرة: 2] .

وعليه؛ فثمة حقائق يتضمنها هذا النص، ويريد أن يوصل الناس – من خلاله – إليها، وضياع هذه الهداية وعدم إمكانية الوصول إلى (الحق) الذي يريد الله لعباده الوصول إليه يعني: أنَّ القرآن نزل شقاءً للناس وليس رحمة لهم، وهذا منفي عن القرآن المجيد .

ثانيًا: بين الله سبحانه طبيعة علاقة الإنسان بالقرآن، وهي علاقة التدبر، كما قال سبحانه: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴿٢٩﴾﴾ [ص: 29]، والتدبر مرحلة بعد مرحلة الفهم، وبالتالي فهو مطالب بالفهم أولًا ثم بالتدبر ثانيًا .

وعليه؛ فإن التحدي الأكبر أمام النص القرآني ليس من النص ذاته وإنَّما من قارئه، لأن ((كلام الله ورسوله وكلام العلماء مملوءٌ بما يَفْهَمُ الناس منه معنى فاسدًا؛ فكان العيب في فهم الفاهم لا في كلام المتكلم الذي يُخاطب جِنْسَ الناس))[2]، والعقل الذي هو أداة التأمل في النص، لكنَّها أداة عندما تتأثر بالهوى يحصل لها الزيغ والانحراف عن طريق الوصول إلى المعنى الصحيح، والنزعة (العقائدية) قد تتحول إلى هوى فبينما يحسب القارئ أنَّه يُفسر النص من أجل الوصول إلى هدايته؛ إذا به يُفسره من أجل الوصول إلى نصرة مذهبه ومعتقده .

ثالثًا: نبه القرآن على التدابير اللازمة لتجاوز الابتلائية، والتحدي الأكبر الذي يواجه النص، وذلك عبر مجموعة من الضوابط، ويمكن للباحث أن يتأمل هذه الضوابط مرة بعد أخرى قبل أن يقدم على النص القرآني، فهمًا وتدبرًا، وهي:

1() انظر في هذا المعنى: العقائدية، ياسر المطرفي: (693)، إلى آخر الفصل، مركز نماء للبحوث والدراسات، وقد لخصناه بكامله .

2() تلخيص كتاب الاستغاثة، (2/ 615) .

1- الانتباه إلى صفات القرآن، وهي:

- أنه نص محفوظ، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴿٩﴾﴾ [الحجر: 9] .

- أن الاختلاف والتناقض لا يتوجه إليه، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴿٨٢﴾﴾ [النساء: 82] .

- أن القرآن ميسر للفهم والتأمل والتدبر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴿١٧﴾﴾ [القمر: 17]، ويستفاد من هذا، أنه: نص واضح مبين، مفصل، إنَّ وضوح القرآن إنَّما يكون فيما إذا أخذ القرآن كبنية واحدة وتم تفسير بعضه ببعض، يرد فيه المتشابه إلى المحكم، وليس بأخذ النص القرآني كأجزاء متفرقة، وهو السلوك الذي أنكره الله سبحانه في قوله: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴿٩١﴾﴾ [الحجر: 91].

2- الانتباه إلى أن اللغة العربية - لغة النص القرآني - من أهم المعينات على فهم القرآن .

فلا يصح إسقاط لغة أخرى على القرآن المجيد، ففهم القرآن لا بد أن ينطلق من لغة العرب، ومن أجل ذلك تبقى صحة الاستدلالات مرهونة أولًا وقبل كل شيء بموافقتها لأساليب العرب .

ومع هذه اللغة وأثرها في تحقيق هداية النص؛ فإنَّ الله أرسل مع القرآن رسول مبلغًا وظيفته البيان وتحقيق الهداية .

3- الانتباه إلى مبلغ النص (الرسول)، وأنه المبيّن الأعظم للقرآن، والمفسر الأول له .

وقد نبه الله تعالى على ذلك، فقال: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: 44].

وقد نبه النبي صلى الله عليه وسلم على عدة ضوابط في فهم القرآن، من أهمها:

- أن الغاية من قراءة القرآن = الفهم .

- أن الاجتهاد في فهم القرآن - بضوابطه - سائغ .

- النهي عن الجدل في القرآن، وضرب بعضه ببعض .

- التنبيه على وحدة النص القرآني .

- إقرار التساؤل حول النص .

– اعتماد السنة كمبين للقرآن الكريم .

4– أما التدابير الخاصة بالقارئ، فمن الأمور التي ذكرها القرآن:

– الاستماع والإنصات، بغية التفهم والتعقل الذي سيؤدي بدوره إلى التأثر والامتثال، ومعلوم أن فعل الإنصات أكثر من مجرد الاستماع، ولذلك لم يكتفِ الله بالأمر بمجرد الاستماع بل أمر بهما جميعًا، فقال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف: 204].

– عدم العجلة في تلقي القرآن، كما قال سبحانه: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴿١١٤﴾﴾ [طه: 114].

– التهيئة النفسية لتلقي القرآن، وقبول أحكامه، والعمل بها، كما قال سبحانه: ﴿كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴿٢﴾﴾ [الأعراف: 2]، فالنتائج التي يمكن أن يوصل إليها النص قارئه ربما تكون معاكسة لرغباته، وهو جزء من التحدي الذي يقع لقارئه فربما يفشل في هذه المواجهة بينه وبين النص .

– ترك الممارسات الخاطئة في التعامل مع القرآن، كالتقليد، والجدل بغير علم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴿٢٥﴾﴾ [الجاثية: 25]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴿٥٦﴾﴾ [غافر: 56].

رابعًا: الاعتماد الأكبر في فهم القرآن هو على عربيته، وهذا هو الأساس الذي بُني عليه تيسير فهم القرآن، ومن الطبيعي أن تبقى مواطن مشكلة يكون الرجوع فيها إلى أهل الخبرة به ممَّن لهم عناية بتفسيره ولهم معرفة بالسنة وبالإجماع وبأسباب النزول وبالناسخ والمنسوخ .

وأنَّ الاختلاف الواقع في تفسير النص القرآني يقع على نوعين[1]:

النوع الأول: ما يحتمله النص ممَّا هو من قبيل اختلاف التنوع؛ إذ هو ممَّا يُمكن حمل الآية عليه، فكلها معانٍ صحيحة تحتملها الآية.

1() انظر: فصول في أصول التفسير، د. مساعد الطيار، (59) .

وهذا النوع من الاختلاف لا يُفضي إلى خلاف مقصود الهداية، وقد نص الثوري على أنَّ هذا النوع من الاختلاف قليل، فقال: «ليس في تفسير القرآن اختلاف، وإنَّما هو كلام جامع يراد به هذا وهذا»[1].

وقد أكد ابن تيمية على أنَّ غالب تفسير الطبقات الأولى من مفسري الصحابة وتلاميذهم هو من هذا الباب، فقال: «الخلاف بين السلف في التفسير قليلٌ، وخلافهم في الأحكام أكثر من خلافهم في التفسير، وغالب ما يصح عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد» [2].

ويضيف بأنَّ: «عامة الاختلاف الثابت عن مفسري السلف من الصحابة والتابعين هو من هذا الباب»[3].

النوع الثاني: ما كان من اختلاف هذه التفاسير على قبيل اختلاف التضاد، وهذا النوع يمكن النظر فيه من عدة جهات:

الأولى: من جهة آثاره: فليس كل اختلاف التضاد يكون مؤثرًا على المعنى، مثل خلاف المفسرين في إبليس هل هو من الملائكة أم الجن ؟[4]

فلو قِيل بأي واحد من هذين القولين فلن يؤثر في المعنى، وبالتالي لا علاقة له بموضوع الهداية من عدمها، وإن كان مفيدًا في قضايا أخرى .

الثاني: من جهة مسبباته: فالأسباب التي تقود إلى هذا النوع من الاختلاف تعود إلى أمرين: نوع راجع إلى (النص) من حيث احتمالية دلالته، ونوع آخر يرجع إلى (المفسرين) من حيث اختلاف فهومهم[5].

ولا تكون الخلافات الراجعة إلى هذين الأمرين مفضية إلى خلاف مقصود النص إلَّا إذا حصل التفريط فيهما:

---

(1) سنن سعيد بن منصور، (5/ 312)، والسنة، للمروزي، (7) .
(2) مجموع الفتاوى، (13/ 333) .
(3) المصدر السابق: (13/ 381) .
(4) اختلاف السلف في التفسير، محمد سليمان، (155) .
(5) انظر: فصول إلى أصول التفسير، (63) .

- إمَّا من جهة ضعف التكوين اللغوي .

- أو من جهة غلبة النزعة العقائدية/ أو المذهبية التي تحاول توظيف النص لتأييد تلك النزعات، من خلال استغلال سعة الاحتمالات اللغوية في النص .

ولذلك فكلما ضعفت عناية القارئ باللغة أو غلبت عليه النزعة العقائدية/ أو المذهبية كلما أثر ذلك على فهمه للنص، فيكون الإشكال حينئذٍ راجعا إلى القارئ لا إلى صعوبة في المقروء .

خامسًا: يمكن تحديد المحددات التي لا بُدَّ من استحضارها في التعامل مع النص القرآني عبر النظر في أطراف النص الأساسية الثلاثة وهي: المخاطِب (= المتكلم)، والمخاطَب (= السامع)، الخطاب (= النص) .

- فأما المخاطِب (المتكلم)، فقد قدمنا أنه صادق، وكلامه محكم، وقد طلب منا الإقبال على فهم كتابه، وهذا يستدعي أن القرآن بين، وأرشدنا إلى حمل المتشابه على كلامه البيِّن المحكم، فكلامه يفسر بعضه بعضًا.

- أما المخاطَب (السامع)، فله شرطان مهمان:

1- الشرط العلمي، وتتفاوت درجة فهم المخاطبين نظرًا لتفاوتهم في القرب من النص ومعايشته وتوفر الأرضية التي تساعدهم على فهمه بشكل أكبر، وعلى هذا بُني القول بتقديم تفسير النبي صلى الله عليه وسلم لكلام ربه على تفسير غيره؛ لأنَّه أقرب الناس من ربه، وعليه يتنزل القرآن، وهو أفصح من نطق بالضاد، وعليه أيضًا بُني القول بتقدم مفسري جيل الصحابة رضي الله عنهم لِمَا اجتمع عندهم من خصائص زمانية ومكانية مؤثرة في فهم الخطاب لم تجتمع لغيرهم.

2- الشرط الأخلاقي، فصدق السامع (المخاطَب) وتحريه للوصول لمراد المتكلم له أثر كبير في الوصول للمعنى، فكلما كان المخاطب صادقًا في فهم كلام من يخاطبه = ساعده ذلك على التخلص من آثار الهوى الذي يتلبس بلبوس (العقائدية/ أو المذهبية)، والذي يحمله على تفسير كلام غيره على غير مراده حتى يتطابق مع ما يريده .

- أما الخطاب (النص)، فعلى الناظر فيه أن يستحضر:

1- لغة الخطاب، وأن القرآن نزل بلغة العرب فكل فهم خالف لغة العرب، سواء من جهة المفردات أو الأساليب لم يكن تفسيرا مقبولًا .

2- أحوال تنزل الخطاب (المكان – الزمان – السبب)، فمعرفة الزمن الذي وقع فيه الخطاب تُعين على فهم ملابساته، ومن هنا نشأت أهمية معرفة أسباب النزول، والمكي والمدني، والناسخ والمنسوخ، وكذلك القول بأهمية تفسير الصحابة؛ لأنَّهم عايشوا التنزيل وعرفوا الأحوال التي نزل فيها الخطاب .

سادسًا: المراحل الأساسية التي لا بُدَّ من المرور بها أثناء تحديد الدلالة وإغلاقها، وهي مرحلتان:

المرحلة الأولى: تحديد دلالات النص الممكنة وحصرها وذلك من خلال إعمال ثلاث مجموعات من القواعد وهي:

– القواعد اللغوية (لغة النص): فالقرآن نزل بلسان عربي مبين، وبناء عليه يجب تحديد دلالته وفقًا لقواعد هذا اللسان الذي تتوافق معه .

– القواعد النسقية (نسق النص): فالنص منتم إلى نسق شرعي، فعند إرادة تحديد دلالته لا بُدَّ من تفسير بعضه ببعض، والإحالة إلى مجموعة النسق الشرعي الذي ينتمي إليه، كالرجوع لتفسير القرآن بالقرآن أو تفسيره بالسنة، بحيث يظهر بشكل متوافق بما لا يجعله متعارضًا بعضه معه بعض .

– القواعد المقاصدية (مقاصد النص): فالنص له مجموعة مقاصد يجلب بها المصلحة ويدفع بها المفسدة، ولا بُدَّ في تحديد دلالته من مراعاة القيم والمصالح التي يقصد النص لتحقيقها .

المرحلة الثانية: الاختيار من بين تلك الممكنات من خلال المقارنة بين نتائج تلك الدلالات التي أنتجتها تلك القواعد، والتدليل على هذا الاختيار، وحينئذٍ:

إمَّا أن تكون نتائج هذه القواعد متماثلة: فهنا يكون النص مغلقا على وجه القطع .

وإمَّا أن تكون نتائج هذه القواعد مختلفة، فهنا لا بُدَّ من إعمال قواعد الترجيح بين تلك القواعد التي تبين درجة حجية كل مجموعة من مجموعات القواعد السابقة بالنسبة للمجموعتين الأخريين، واختيار واحد من تلك الاحتمالات ويكون النص مغلقا على جهة الظن .

وبهذا نكون قد وصلنا إلى نهاية هذا البحث سائلين الله تعالى أن ينفع به، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .